

عنوان المقال: المجتمع الجزائري في كتابات الرحالة الفرنسيين بين التشويه وواجب التصحيح خلال القرنين (18 و19م)

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

المجتمع الجزائري في كتابات الرحالة الفرنسيين بين التشويه وواجب التصحيح خلال القرنين (18 و19م)

Algerian society in the writings of French travelers between distortion and the duty of correction during the centuries (18th and 19th AD)

خيرى الرزقي^{*1}

جامعة باتنة 1 (الجزائر)، rezki.khairi@univ-batna.dz

مخبر الحركة الوطنية الجزائرية والثورة التحريرية 1962-1830

تاريخ النشر: 2024 / 03 / 25

تاريخ الاستلام: 30 / 12 / 2023

ملخص:

يحمل المقال عنوان المجتمع الجزائري في كتابات الرحالة الفرنسيين بين التشويه وواجب التصحيح خلال القرنين 18 و19م، وذلك بإختيار نموذجين لرحلتين فرنسيتين مختلفتين من حيث التطرق الى النمطية الاجتماعية . ويهدف المقال الى كشف عن الزيف والتحريف الذي صوّره الرحالة الفرنسيين عن المسلمين في الجزائر ، واطلاع القارئ ممن لم يطلع على هذه الرحلات على محتواها لإدراك خطر كتابات الرحالة الفرنسيين. الكلمات المفتاحية: الجزائريون؛ الرحالة؛ الفرنسيون؛ الكتابات؛ المجتمع؛ النمطية.

Abstract:

The article bears the title: Algerian society in the writings of French travelers between distortion and the duty of correction during the 18th and 19th centuries AD, by choosing two examples from two different French travels in terms of addressing social stereotyping. The article aims to reveal the value of the falsehood and distortion portrayed by the French travelers about Muslims in Algeria, and to inform the reader who has not been familiar with these trips about their content in order to understand the danger of the writings of the French travelers.

Keywords: Algerians; Travellers; French; Writings; the society; Stereotyping.

*خيرى الرزقي

مقدمة

يعتبر أدب الرحلة من المصادر الأساسية في عملية التدوين التاريخي لتاريخ الشعوب على مختلف العصور والمحطات وسواء كانت هذه الرحلات قام بها المسلمون داخل البلاد الإسلامية أو نحو العالم الغربي وعلى الخصوص نحو أوربا ، أو تلك الرحلات التي قام بها الأوروبيون نحو البلاد الإسلامية والتي زادت في عددها مع ظهور وتطور وانتشار الحركة الإستعمارية الأوروبية الحديثة ، هذا مع ملاحظة النشاط الواسع والمكثف في إطار عملية الإستشراق وخاصة الفرنسي منه نحو المستعمرات فزادت الرحلات الأوروبية الاستطلاعية وزادت معها تلك الكتابات التي تصف حال وأحوال المسلمين في البلاد الإسلامية ، وما يعيننا منها هنا على كثرتها وتعدد توجهاتها ما كان متجها نحو الجزائر و ما حمله من كتابات والتي للأسف الشديد كانت كلها كتابات مغرضة لا تخرج عن ذلك الإحساس بالكره للمسلمين في الجزائر ومحاولة إعطاء صورة مشوهة عنهم وربما هذا بغية تبرير حملاتهم تجاه البلاد.

ومما سبق يمكن أن نطرح الإشكالية الرئيسية للموضوع وهي : كيف صورت ووصفت هذه الرحلات المجتمع الجزائري من حيث مكوناته الثقافية وأنساقه الاجتماعية ؟ ويمكن أن نطرح إشكالات بحثية أخرى فرعية ذات صلة بالبحث وهي : ما أغراض وأهداف الرحالة الفرنسيين من القيام بهذه الرحلات تجاه الجزائر بالضبط ؟ وما هي الصورة والانطباع الذي أرادوا إيصاله للآخر عن الجزائريين من خلال ما كتبوا في رحلاتهم ؟ وهل استطاعت الكتابات الجزائرية الحديثة والمعاصرة الرد على ما جاء في رحلات الفرنسيين من كذب وظلم واقتراء.

يهدف المقال أساسا الى كشف عن قيمة الزيف والتحريف الذي صوّره الرحالة الفرنسيين عن المسلمين في الجزائر ، وإطلاع القارئ ممن لم يطلع على هذه الرحلات على محتواها لإدراك خطر كتابات الرحالة الأوروبيين.

وبغية إعطاء الموضوع حقّه من الدراسة اخترت له المنهج الوصفي حين الكلام عن الجزائريين والمنهج التحليلي عند دراسة ما جاء من معلومات في هذه الرحلات ، والمنهج النقدي حين الرد على ما كتبوا بأدلة علمية وتاريخية وحتى برحلات أخرى للجزائر وفي نفس الوقت والتي قالت بعكس ما قالته الرحلات الفرنسية تماما.

أولاً: نظرة عامة عن الرحلات الأوروبية والفرنسية تجاه الجزائر

يمكن أن نتتبع مسار هذه الرحلات الفرنسية خلال القرن 17 م أين تجسّدت في رحلات المبشرين بالمسيحية بالدرجة الأولى أين ساهم أصحاب المدرسة الكلاسيكية في نشرها والتشهير لها ، وخلال القرن 18م أين نلمس ذلك التطور في أدب الرحلة الفرنسية أين طغت عليها النزعات الفردية لأصحابها وبدأت تصوب فكرها نحو الجانب الحضاري للعالم الإسلامي وعليه يمكن القول هنا عن بداية النظرة الإستشراقية الفرنسية من خلال أدب الرحلة بغية أخذ كل جميل من الحضارة الإسلامية وزيادته في بناء الحضارة الأوروبية ولكن مرّة أخرى في إطار نظرة استعلاء واحتقار للآخر وزاد أصحاب هذه الرحلات من عصبيتهم الدينية والعرقية تجاه الإسلام والمسلمين عامة وأصبحت الرحلات في هذه الفترة وكأنها هي الممثلة للدول الإستعمارية وسياساتها المختلفة .

إنّ بداية القرن 19م تمثل عصر اشتداد الرحلات الأوروبية والفرنسية وزيادة عددها تجاه بلاد الشرق الإسلامي وأصبحت تلك الرحلات ما هي إلا مجرد أهداف للحركة الإستعمارية الأوروبية الحديثة (هنتش، 2006) التي مارست سياستها خارج نطاق الحضارة نهائيا من تقتيل وتشريد ونشر للكراهية وبالتالي فقد مهّدت الى تنفيذ عملية الإحتلال الذي بدوره أصبح ينظر للرحالة على أنهم بمثابة العيون والمرشد في المستعمرات أين تمّ إحياء العصبية القبلية والنعرات الداخلية وكل هذا بهدف تسهيل التوغل وإحكام السيطرة .

ومن بين أهم الرحلات الفرنسية التي كانت صوب الجزائر والتي حملت في طياتها مادة علمية كبيرة تحتاج من الباحثين الى الكثير من التمهيص والرد نجد رحلة وارني التي أعطاها عنوان : الجزائر أمام

عنوان المقال: المجتمع الجزائري في كتابات الرحالة الفرنسيين بين التشويه وواجب التصحيح خلال القرنين (18 و19م)

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

الإمبراطور ، ورحلة بول بورد التي تحمل عنوان : رحلة عبر الجزائر ، الى جانب رحلة الكاتبة الفرنسية المسماة لويس ريجيس والتي تحمل عنوان : "قسنطينة ، رحلات وإقامات " هذا الى جانب رحلة أوغست باسيت ذات العنوان : رحلة عبر جزائر اليوم كما توجد هناك العديد من الرحلات الأخرى والتي لم تخرج في إطارها العام عن الرحلات السابقة الذكر ومنها رحلة الدكتور " شو " الانجليزي والتي تحمل عنوان : " جولات في ولايات متعددة ببلاد البربر والشرق " إضافة الى رحلة شارل دوغالون ورحلة " جان أندري باسيونال " (1725-1724) ، وهناك رحلة فانتييري دي بارادي (1789) ورحلة فرانثيسكو خيمينيث (1720-1717) ورحلة القس بواي وغيرهم من الرحلات كثير . ويمكن أن نستعرض صورة المجتمع الجزائري من خلال نماذج الرحلات الأوربية نحو الجزائر والمتناقضة فيم بينها فيما أوردت من معلومات ، ونكتفي هنا برحلة " الجزائر أمام الإمبراطور " لصاحبها وارني والتي من خلالها جاء بصور مشوهة وأغراض استعمارية ، وفي المقابل سوف نتطرق الى رحلة " قسنطينة رحلات وإقامات " لصاحبها لويس ريجيس والتي من خلالها قد ناقضت كل ما جاء في رحلة وارني ، وقد اخترت هذان النموذجان المتناقضان من أجل إبطال الرحلات (فهيم، 1989) المغرضة والتي تصب في خانة الاستعمار والعمل على تثبيتته في الجزائر .

ثانيا: رحلة " الجزائر أمام الإمبراطور 1865 "

وهي رحلة لصاحبها " الدكتور وارني " (warnier, 1865) والتي جاءت في ثلاث أجزاء حيث تضمن الجزء الأول منها معظم العادات والتقاليد التي كانت منتشرة بين الجزائريين الذين أطلق عليهم مصطلح " الأهالي " وبهذا القسم مادة علمية كثيرة مسمومة عن عامة الشعب التي حاول صاحبها هنا أن يبرزهم على شكل فئتين غير متجانستين رغبة منه في بحث التفرقة وهما فئة العرب والبربر ، والمتتبع لهذه الرحلة يلاحظ اقتناع صاحبها تماما بضرورة احتلال فرنسا للجزائر مع وجوب تحقيق سياسة الإدماج الكلي لعناصر المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي بالجزائر مع سيادة العنصر الأوربي الفرنسي وتحكمه في زمام الأمور .

بينما كان القسم الثاني من هذه الرحلة يتمحور حول قضايا مختلفة تتركز بالأساس حول سياسة الاستيطان أو التعمير بصفة عامة مع تشجيع المعمرين كما يسميهم ومنحهم كل المعونة والحماية ، هذا الى جانب الحديث وتمجيد الجيش الفرنسي بالجزائر مع الإشادة بانجازاته العسكرية المحققة في الميدان بما فيها تلك الجرائم والمجازر التي ارتكبتها في حق الجزائريين .

إنّ القسم الأوّل من رحلة "وارني " هو الذي يهمننا هنا ، إذ نجده يستخدم مصطلح " الأنديجان " أي الأهالي بدلا عن مصطلح الجزائريين ، وهذه في حد ذاتها نكران للهوية الوطنية الجزائرية وربما تعد هذه الرحلة هي أكبر ضربة وصورة مشوهة للجزائر في رحلة واني ، وتزيد قسوته وحقده حينما يحاول إبراز أنّ المجتمع الجزائري غير متماسك اجتماعيا ولا يتمتع بوحدة اجتماعية ، وأكثر من هذا عمد الى تقسيمه الى فئتين هما البربر وبها بدء حديثه ، والفئة الثانية كانت فئة العرب ، وبهذا يزول أي غموض حول أهداف رحلة وارني من الناحية الاجتماعية وهي بث روح التفرقة والخلافات العرقية لإضعاف الوحدة وإضعاف الموقف تجاه السياسة الفرنسية (سعد الله، 2007).

والغريب في أمر وارني هنا أن حتّى داخل فئة البربر كما قال فيه هناك بربر مستعربة وقال عنها ربما تشكل فئة ثالثة داخل المجتمع الجزائري ، محاولا كذلك فتح باب الفتنة بين الفئة الواحدة محاولا طرح سؤال خبيث وهو : هل فئة البربر المستعربة هي فئة بربرية أم فئة عربية وغرضه في كل هذا زرع الفتنة والتشكيك بين عناصر المجتمع الجزائري ، بل ذهب وارني الى أبعد من ذلك عندما تساءل قائلا : هل البربر المستعربة تخلّت عن بربريتها وسادها طابع العروبة أكثر من طابع البربر وكأنّه يوجه لوما لهذه الفئة من جهة ، ومن جهة ثانية كأنه يدعوا باقي البربر الى التنكر من البربر المستعربة وكل هذا -طبعاً - يصب في خانة سياسة فرق تسد تسهила لسياسة الكولون وتحقيقا لفكرة الإدماج الكلي في المجتمع الفرنسي .

عنوان المقال: المجتمع الجزائري في كتابات الرحالة الفرنسيين بين التشويه وواجب التصحيح خلال القرنين (18 و19م)

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

يحاول وارني في رحلته إعطاء الدور البارز والأكبر لفئة البربر متناسيا بأن المجتمع الجزائري على مختلف أطرافه الاجتماعية يشكل وحدة وطنية واحدة موحدة بفضل تعريب الإسلام ، وما هذه الأفكار إلا محاولة منه لإيجاد مدخل ضيق أو ثغرة يستغلها في بث الخلاف ن وللأسف مازالت هذه العقلية عند الفرنسيين متجذرة الى اليوم وتبرز من حين الى آخر ، كما نجد أن وارني يحاول عبثا الإقناع بأن البربر هم السكان الأصليين لكل إفريقيا وليست الجزائر فقط ، وهنا يمكن الرد بأن أصلية السكان للبربر هي حقيقة تاريخية لكن وجب على وارني ومن إتبعه من الفرنسيين الحاقدين على الجزائر بأن فئة البربر كما يسميهم قد أثبتت ولائها للوطن وخير دليل على ذلك قيامها بمقاومات شعبية شجاعة ضد الفرنسيين وتواجدهم بالجزائر ويستمر ذلك الموقف المشرف حتى الى قيام الثورة التحريرية الجزائرية .

وعن التوزيع الجغرافي للبربر في الجزائر نجد أن وارني يحدد المنطقة الجغرافية ثم يضيف إليها من يسكنها من البربر على سبيل المثال يقول وراني أن الشريط الساحلي تسكنه فئة بربرية تسمى القبائل ، بينما تسكن فئة الشاوية في جنوب منطقة عمالة قسنطينة ، ويضيف أن بربر " الجبيلية " هي التي تسكن ضواحي عمالة مدينة الجزائر ووهران ، وبربر الرواغة تستوطن منطقة وادي ريغ و ورقلة بالصحراء الشرقية للجزائر ، هذا الى جانب قبائل بني ميزاب بالصحراء الوسطى الجزائرية طبعاً نسبة الى وادي ميزاب .

إنّ ذهاب الرحالة وارني الى هذه الخريطة الجغرافية لتوزيع " البربر " في الجزائر ليس اعتباطيا وإنما يقدم من خلاله خريطة طبوغرافية للجيش الفرنسي الذي يعتقد قاداته ومعظم أمثال وارني أن هؤلاء السكان في عقليتهم هم أقرب الى الأوربيين وبالتالي يمكن أن تسهل عملية التوغل ن لكن للأسف فمعظم المقاومة الراضة لهم كانت قد واجهتهم في هذه المناطق مثل مقاومة وادي ريغ ، ومقاومة الأوراس ، ومقاومة جرجرة وغيرها .

إنّ وارني قد ركز كثيرا على البربر في القسم الأول من الرحلة التي قام بها ، ويذهب الى حد تشبيههم بالفرنسيين من حيث نمط المعيشة أو البنية المرفولوجية أو حتى طريقة ونظام الحياة اليومية التي قال عنها أنها تشبه النظام الديمقراطي أين تختار القبيلة الواحدة ممثلا عنها ويتم انتخابه من الجميع ويقول أن هذا النظام يشبه تماما نظام البلديات في فرنسا ن وأن هذا النظام يطلق عليه اسم " نظام الجماعة " أي ما نعرفه اليوم التجمعات أو نظام العزابة في وادي ميزاب ، ومن هذه التركيبة النوعية في التمثيل يحاول وارني الدخول من خلالها ويشير الى أن العيب هنا يمكن في فقدان هذا النظام لسلطة قرار فعلية وفعالة وقوة تحكم كل القبائل وفي هذا دعوى صريحة الى التمرد على سلطة البلاد الرسمية وخلق مجموع سلط محلية جغرافيا ومنه بث الفوضى السياسية وإضعاف الموقف ، وبمعنى آخر بث فكرة إيجاد سلطة داخل سلطة والعمل على الإقناع بها ، ومن هنا راح وارني ينشر فكرة قابلية البربر بجميع فرقهم على سهولة الاندماج داخل المجتمع الفرنسي وسهولة تأقلمهم مع القوانين الفرنسية وهم على العكس تماما من العرب الذين هم صعبوا المراس وتصعب معهم مهمة الإدماج وتحتاج فرنسا في ذلك الى طرق خاصة ووقت أكبر .

ويذهب وارني الى أكثر من هذا وتوغل بحديثه داخل الأسرة البربرية الواحدة متحدثا عن الرجل البربري والمرأة البربرية ، محاولا إبراز الفروق بينها وبين الأسرة العربية فيعطي صفات للرجل البربري بأنه بعيد عن تعدد الزوجات ومحباً ومقدراً لزوجته وأن المرأة البربرية امرأة حقيقية وتمارس سيادتها على بيتها من دون اللجوء الى الخدم في بيتها وعليه قال وارني أن الأسرة البربرية أكثر تماسكا بين أفرادها وهم بعيدون كل البعد عن الصراعات العائلية بينهم .

كما أشار وارني الى أنّ البربري محبا للملكية الفردية وهذا إشارة منه الى السلطات الفرنسية بأنه في إمكانها سهولة تطبيق نظام الضرائب على هذه الملكيات ، ومن جهة وبنية مبيتة حسب ما يبدوا لنا أن الرحالة وارني قد تطرق الى فئة من البربر الذين يعيشون وسط القبائل العربية وقال عنها كونها فئة مضطهدة وتعيش تحت سيطرة هؤلاء ، وهنا يبدو أنه لم يعيش الموقف حقيقة ولم يقف عنه بشخصه في

عنوان المقال: المجتمع الجزائري في كتابات الرحالة الفرنسيين بين التشويه وواجب التصحيح خلال القرنين (18 و19م)

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

هذه النقطة ولم ير ذلك التعايش بين الفئتين في المجتمع الجزائري وقد كان غرضه من كل هذا بث العداوة والخلافات بين عناصر المجتمع وخاصة حين ذهابه الى القول بأن العرب استغلوا البربر في بناء حضارتهم ونسبوا تلك الأعمال إليهم ويستشهد من التاريخ حين فتح اسبانيا إذ قال : " ...إنّ الفضل الأكبر يعود للعدد الضخم من المقاتلين البربر المكونين للجيش الفاتح ، وللأمراء البربريين كذلك الذين حكموا البلاد نيابة عن القادة العرب " (warnier، 1865).

وفي المقابل يجد المتتبع لرحلة وارني ذلك التهكم والسخرية الكبيرين من العرب وهو المصطلح الذي يقصد به المسلمين و أحيانا يطلقه على البدو الرحل (السخري، 2008)، وتكرّر ذلك منه مطولا ولعدة مرات وفي الوقت نفسه يورد ذلك الإعلاء لفئة البربر وكل هذا يبدو ظاهرا بغرض ترسيخ العداء بين عناصر المجتمع ونشر النزعات العصبية والقبلية ، وكل هذا قصده النهائي هو تشويه صورة الإسلام والعرب المسلمين في الجزائر .

كما ينكر وارني في رحلته نكرانا تاما للعرب ودورهم في الحضارة ويصفهم بالبعيدين عنها وهو الذي قال عنهم بأنهم جاؤوا من قارة آسيا ولا علاقة لهم بأرض شمال إفريقيا البربرية ، وأنّ العرب لم يستطيعوا التخلص من الصفات والعادات السيئة التي لازمتهم طويلا وخاصة عادة الترحال (وارني، 1865) وعدم تمكنهم من التوافق والتأقلم مع البربر السكان الأصليين ، كما أطلق وارني تهما تتناقض مع الحقائق التاريخية كون العرب ليس لهم حضارة بل هم أعداء الحضارة أصلا متناسيا في ذلك الحضارة العربية الإسلامية التي ساهمت حتى في تحضّر بلده الأصلي أيام العصور الوسطى لما كانت شوارع فرنسا تعج بالأوساخ وتشهد الظلام والسيطرة على القول كان العرب حينها يعيشون أوج تقدم العلوم والطب والرياضيات الخ (قباني، 1993).

وفي شأن العرب والحضارة قال وارني : " ليس لهم أي حضارة ، بل هم أعداؤها ، وأعداء العمل والنجاح ، يعيشون على السرقة ، وقطع طرق القوافل التجارية " (warnier، 1865) إنّ هذا التصريح ما هو إلا دليل قاطع على الحقد الذي يكنه وارني للعرب وتكررا للماضي التاريخي والحط من القيمة وكل هذا لأغراض استعمارية بحتة أو ربما كان منه هذه التصاريح لعدم خضوع العرب للسلطة الفرنسية المحتلة وقيامه بأعمال ضدهم بغية عرقلة بسط نفوذهم على البلاد وهنا استنكر وارني مواقفهم تجاهها مثل قيامهم بحرق الأرض في فصل الخريف وقال أن هذا التصرف يعرقل المعمرين في استغلالهم للأرض وعدم إنتاجيتها بسبب حرقها .

ويستمر وارني بالحديث عن نظام القبيلة عند العرب ويعتبره عاملا يحد من انتشار التوسع الفرنسي في البلاد فهو يرى أن تمثيل القبيلة في المجتمع العربي يكون من قبل الرجل ومن طرف الأكبر سنا فيها وعند الموت يخلفه الابن وهكذا ، وهنا يعبر وارني أن هذا النظام في غير صالح فرنسا في تصديدها للمقومات الشعبية حيث عادة ما كانت تستمر بعد موت شيخ القبيلة وبالتالي لا يهنئ لفرنسا بال وعدم تمكنها على إخماد هذه المقومات مستشهدا في ذلك بمقاومة قبيلة سي سليمان بأولاد سيدي الشيخ .

ويواصل وارني تهكمه على الأسرة العربية التي قال بأن العرب فيها محبوبون كثيرا لظاهرة التعدد في الزوجات وأنهم لا يقدرونهن ويفرحون لموتهن بغية الزواج من جديد ، هنا نلاحظ بأنه يصور العرب وكأنهم زير نساء ولا يهتمهم سوى تحقيق الرغبات ولا علاقة لهم بالمبادئ الإنسانية التي تنكر فعلا وفي كل الديانات السماوية الفرح بموت الآخر ، وقد كان منه كل هذا بغرض الزيادة في إعطاء صورة أكثر تشويها عن الإسلام بصورة عامّة ، ويذهب وارني الى حد القول أن العربي يحزن عند موت ابنته لأنّه يكون بذلك قد ضيّع مالا كثيرا كان سيجنيه بعد زواجها وفي هذا تصوير العربي مرّة أخرى بأنه ذا نفسية وطبع مادي ، إضافة الى استعماله الخدم في منزله وأنه عديم الشخصية في كل مواقفه وتصرفاته (warnier، 1865).

وفي مجمل القول عن رحلة وارني الى الجزائر أنّها لا تخرج في عمومها وشكلها وغرضها عن باقي كتابات مؤرخي الحركة الإستعمارية ، وكتابات المستشرقين الفرنسيين المدعّمين والمساندين لاحتلال

عنوان المقال: المجتمع الجزائري في كتابات الرحالة الفرنسيين بين التشويه وواجب التصحيح خلال القرنين (18 و19م)

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

البلدان ، ففي هذه الرحلة يلمس تلك الصورة المظلمة التي أرد وارني طبعها في ذهن التلقي عن العنصر العربي وعن الإسلام والمسلمين عامة بالجزائر أين وصف جميع الجزائريين بالشعب المعادي للعمل والشعب الكسول والمعتمد على نظام العشائرية والقبلية التي تركز على الشراسة والعدوانية والعقلية المتوحشة البعيدة تماما عن مبادئ الحضارة متناسيا في كل ذلك أعمال سادته وأسلافه عند ارتكاب أبشع عمليات تقتيل بالجزائر خاصة في تاريخ البشرية جمعاء وطرق التنكيل بالجنث وطرق التعذيب التي أنشئوا لها مدارس خاصة مهمتها تخريج ضباط في تقنيات التعذيب والاستنطاق وكل هذا من أجل رفض السيطرة الأجنبية على البلاد ، ومتى وجدنا شعبا عبر التاريخ يقبل باحتلال بلده من طرف أجنبي بما في ذلك الفرنسيين أنفسهم (غزالي، 2018).

إنّ رحلة وارني لا تخرج إطلاقا عن الرحلات والكتابات الإستعمارية المغرضة التي تقدم صورا مظلمة عن الجزائريين والإسلام والمسلمين وتعطري تلك الصور المضيئة والمشرقة عن المعمرين والأوربيين عامة وتتبع صفة الحضارة والتحضّر بهم والجهل والامية والوحشية بغيرهم ، فهي كتابات بعيدة كل البعد عن الحقيقة التاريخية وتجانس كل صواب .

ثالثا: رحلة : " قسنطينة رحلات واقامات 1879"

وهي لصاحبها الفرنسية لويس ريجيس التي حلت بالجزائر وتنقلت بين مختلف ربوعها ومناطقها واصفة كل ما صادفها من منظر طبيعية وعادات سكان وعلاقات اجتماعية ، وقد أثارت هذه الرحلة سخطا بين أوساط الطبقة المثقفة الفرنسية كونها تعطف كثيرا على حال السكان الأصليين وبالمقابل تدم وتقضح المعمرين الفرنسيين ، وكأنّ لسان حالهم يقول بالعكس الى ما ذهبت إليه ريجيس وسار عليه غيرها مثل الرحالة وارني.

زارت ريجيس معظم مناطق الشرق الجزائري انطلاقا من مدينة سكيكدة الى قسنطينة ووصلتها في شهر ماي 1879 لتكتب بها قرابة الأربعة أشهر بعدها تنتقل الى باتنة في شهر سبتمبر من نفس السنة ثم الى مدينة بسكرة أين زارت تقريبا كلّ أعرشها ومناطقها ثم تقرر العودة الى قسنطينة من جديد وتعدّد عزمها على زيارة الجزائر العاصمة والبلدية والمدينة وقبلها عزّجت على مدينة بجاية والبرج وبعدها رجعت الى فرنسا في رحلتها الأولى التي دامت حوالي ستة أشهر متنقلة في ذلك بين الطريق البري والبحري . عادت لويس ريجيس في رحلة ثانية الى الجزائر شهر ماي 1880 وصولا الى ميناء سكيكدة كعادتها متجهة الى قسنطينة أين مكثت بها فترة شهرين في المدينة العريقة وسمحت لها هذه الزيارة أن تكتب الكثير عن المدينة وعن سكانها لتعود منا مباشرة الى بلدها فرنسا دون أن تزور مناطق أخرى هذه المرّة . إنّ المطلع على رحلة لويس ريجيس يمكن له أن يصنفها الى جوانب متعددة منها التاريخ ، والمجتمع ، والدين ، والاقتصاد والثقافة والسياسة ، بمعنى أنها كتبت ووصفت شتّى المجالات التي كانت آنذاك تحت سلطة وإدارة الاحتلال الفرنسي ، بمعنى آخر أنّ لويس ريجيس وصفت أوضاع الجزائر تحت رحمة الكولون المستدمر ، ومن بين أغراضها من الكتابة عن الجزائريين كانت إيصال أحوالهم الى الفرنسيين من متتبعيها وربما هذه الرحلة سوف تعكس صورة فرنسا ذات الحضارة المزيفة التي تدعيها وكيف مارستها وطبقتها على الجزائريين الذين كانت لويس ريجيس تعبر عنهم بمصطلح " الأنديجان " (Louis, 1881) ومن جهة أخرى عمدت ريجيس الى توضيح سياسة المعمرين وكيفية استغلالهم للأراضي الجزائرية لقراءتها في فرنسا وهو الأمر الذي لم يعجب هؤلاء على مثل هذه الكتابات ولطالما احتجوا عليها أمام الحاكم العام الفرنسي بالجزائر .

في الجانب الاجتماعي خصّصت لويس ريجيس صفحات كثيرة للحديث عن المجتمع الجزائري مركز في كلامها عن السكان العرب وغيرهم وعاداتهم وتقاليدهم ، والغريب في أمرها أنها كانت تورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في كتاباتها ، فقد تحدثت عن الرجل وتحدثت عن المرأة وعن الزواج والطلاق وعادات زيارة المقابر وأخذ الطعام إليها ، كما تحدثت عن المساجد الإسلامية وبعض الزوايا والحمّامات والبيوت العربية ، صف الى ذلك حديثها عن المرأة العربية ولباسها وكل ما تعلق بها .

عنوان المقال: المجتمع الجزائري في كتابات الرحالة الفرنسيين بين التشويه وواجب التصحيح خلال القرنين (18 و19م)

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

وذا ما تعمقنا بالإطلاع على ما كتبه لويس ريجيس نلمس ذلك القبول والميل الى كل ما هو جزائري محلي ولم تصله يد الإحتلال الفرنسي بعد ، فقد تركت مدينة قسنطينة أثرا بليغا في نفسها كونها مازالت تحافظ على خاصيتها العمرانية العربية ، لكن أبدت قلقها من مظاهر التغير التي بدأت تطرأ عليها بفعل بداية تخريب البيوت العربية وتعويضها ببيوت ذات طابع أوروبي ، وهنا أبدت حسرتها على فقدان المدينة لجمالها وزوارها ، ولكن وجبت الإشارة هنا الى أن هذا التخوف في حقيقة أمره يصب في صالح فرنسا وذلك كون المدينة تمثل مركزا حساسا بالنسبة للاحتلال وتراجع وتدور أمر المدينة يزيد من إضعاف مركزها المحوري الذي تتخوف منه الإدارة الكولونيالية ومنه يمكن أن يكون تراجع المدينة يمثل ترجعا للمقاومات الشعبية في المناطق الأخرى وبالتالي تحافظ فرنسا على مركزية الحكم في العاصمة بدلا من خلق أقطاب منافسة أخرى (Louis، 1881).

إنّ الصور التي أوردتها لويسي ريجيس عن الإسلام والمسلمين في الجزائر هي في الحقيقة صورا متنوعة وكثيرة وفي غالبها كانت تنتصر فيها للمسلم الجزائري وتمنحه الأعذار مهما كانت تصرفاته وهو الجزائري المسلم الذي لا يقبل على الإطلاق استبدال دينه الإسلام بدين آخر ، وهنا تراودنا شكوك في توجه لويسي ريجيس الديني في حد ذاته إذ تبدو وكأنها تستعطف الجزائري المسلم وتظهر في صورة المدافع عنه بغية إيصال فكرة تسامح المسيحية ومنه الدخول في سياسة التبشير التي يستعمل أصحابها كل الطرق ويستغلون كل الوسائل والظروف .

ونظرا لتمسك الجزائري بدينه وأرضه فقد كان له من الطبيعي رفض كل الإغراءات الأخرى ورفضه لسياسة الإدماج مع المجتمع الفرنسي بالجزائر بل كان ينظر الى ذلك بآثء خروج عن الملة والدين الإسلامي وكان من البديهي أيضا للجزائري أن يرفض كل صور الحضارة الأوروبية في مختلف تجلياتها (حسين، 1983).

تبدى لويس ريجيس إعجابها بصوت المؤذن في المسجد وتوافد المسلمين لأداء الصلوات وعلى الخصوص يوم الجمعة مشكلين بذلك نمطا وحدويا دينيا بين أفراد المجتمع ن لكنها نهت في الوقت ذاته الى عدم وجود المرأة من بين المصلين متحدثه هنا عن مقارنة بين عدد النساء والرجال في الكنائس وما يقابله في المساجد وربما هذا راجع الى جهلها بحكم الدين في قضية صلاة المرأة في المسجد ، ويبدو لنا أن حديث لويس ريجيس هنا عن الوحدة الدينية وكأنه إشارة منها الى الإدارة الفرنسية للتنبيه الى خطر هذه الوحدة على وجودها بالجزائر لكن في طابع إعجاب كي لا تثير شكوكا وال مواقف مناهضة لها (Louis، 1881).

وعلى العكس ما ذهب إليه بعض الرحالة من أن العرب المسلمين عديمي النظافة وبيوتهم متسخة ومحلاتهم و اقاماتهم كذلك على غرار ما ذهب إليه الرحالة بول بورد في رحلته المسماة " رحلة عبر الجزائر " (Paul, 1880) وهنا ترد ريجيس بأن المسلمين ميزتهم النظافة وأسنانهم براقه من كثرة الوضوء تقول ومداومة الحفاظ على الصلاة ونفس الشيء بالنسبة للباسهم . تبدو صورة المسلمين في الجزائر من خلال رحلة ريجيس أنهم أناس بسطاء ومتواضعون وكرماء فقد استضافوها في بيوتهم أثناء تنقلاتها في المدن الجزائرية وعلى الخصوص استقبالها من قبل شيوخ القبائل وكبار الأعيان أين ترك الاستقبال الحار انطبعا حسنا في نفسياتها ، ومنه أوردت عدة صفات أخلاقية عنهم منها : حسن الخلق ، التواضع ، الرجولة ، عزة النفس ، احترام كبار السن ، احترام رجال الدين والعلم وقد ربطت كل هذا بتعاليم الدين الإسلامي الذي يحثهم على ذلك وفي الوقت نفسه يدعوا هذا الدين الى احترام الآخر من الكهنة والمسيحيين .

لقد سجلت لويس ريجيس انطباع سيئا عن فرقة العيساوة التي قلت عنهم بأن تصرفاتهم تدعوا الى التفرز والغربة في معتقداتهم وطقوسهم الغريبة وأتهم غير ملتزمين بدينهم الإسلامي مع إهمال الصلاة وإيمانهم على الحشيش مما يجعلهم يتمددون في الشوارع بفعل تأثير مفعول المواد المخدرة وقالت عنهم أن يعيشون

عنوان المقال: المجتمع الجزائري في كتابات الرحالة الفرنسيين بين التشويه وواجب التصحيح خلال القرنين (18 و19م)

ISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

حياة الكسل واللهو والتترف ، وقد أرجعت أصولهم الى المغرب الأقصى موطنهم الأصلي متحدثا عن أسباب توزعهم على البلاد المغاربية كتونس والجزائر (louis، 1881). ومن ناحية الشباب فقد استهجن لويس ريجيس تجمعاتهم أمام المحلات والدكاكين ومراقبة المارة والتفوه بكلام أحيانا غير أخلاقي وأعابت عليهم تضييع الوقت وعدم استغلاله في أنشطة أخرى تنفع ، الى جانب هذا نقلت أيضا فرحة العربي المسلم بالجزائر بزيادة ولد ذكرا في العائلة وعدم الاكتراث بولادة البنت وقالت أن هذا راجع الى طبيعتهم كونهم محابين وينظرون الى الذكر كونه مصدر قوة وزيادة في عدد الجند ، وهنا تبدو ريجيس أن فكرها لا بعد كثيرا عن تلك الأفكار الأوروبية التي ترى أن الإسلام والمسلمين ذوي طابع دموي وحربي وبما هذه هي الصورة الأكثر رسوخا في ذهنية الغرب عن المسلمين (قينة، 2009).

فيما تعلق بالمرأة فقد أبدت ريجيس إعجابها بالمرأة القسنطينية وبجمالها ولباسها ، وخاصة النساء القرويات التي شبهتهن بالنساء في الريف الفرنسي ، وهذا ما ذهب الى عكسه رحالة آخرون فرنسيون بأن نفوا أي صفة للجمال في المرأة الجزائرية ، وفي المقابل تستهجن ريجيس المرأة اليهودية التي رأتها في قسنطينة واستنكرت عنها تصرفاتها .

لقد أعجبت لويس ريجيس باحترام المسلمين لموتاهم وتقديسهم لهم وفق طرق خاصة في عملية الدفن وعدم منع نساءهم من زيارة موتاهم يوم الجمعة وفي هذا المضمار أعابت على الكولون عدم احترام مقابر المسلمين وعدم امتناعهم عن إقامة المشاريع المختلفة حتى ولو كلفهم ذلك إزالة المقابر التي تعترضهم من أجل إقامة المشروع .

وفي مجال التعليم تمننت ريجيس من الجزائريين أن يتقربوا من المدارس الفرنسية لمزاولة تعليمهم وبحث في عدم وصول الجزائريين على مرحلة التعليم العالي ، لكن هنا بدوا جليا أنها لم تتحدث عن التعليم العربي الحر الإسلامي وأسباب تعطيله وتعطيل معلميه من الإدارة الفرنسية ، وحسب رأيها فان امتناع الجزائري المسلم عن التعليم الفرنسي وإقباله على ما وجد من تعليم ديني جعله حبيس الماضي وهنا صعب عليه الاندماج بين الفرنسيين حيث قالت أنه : " من جنس محارب وطبعا مستغرق في تأمله الديني ولذلك فلن يندمج معنا إلا بعد مجهودات قوية وقرار حاسم سيكلفه الكثير حتى يستطيع دخول مجرى الحياة والكيونة الأوروبية ... " (louis، 1881).

إن حديث لويس ريجيس هنا يصب في إطاره العام وهو سياسة الإدماج التي تهدف السلطات الفرنسية تطبيقها على الجزائري ، وكأنها توضح لهم أسباب عزوف الجزائريين عن الإدماج أن الخلل يكمن في تركهم خارج نطاق التعليم الفرنسي بمعنى كلامها فيه دعوة الى فرض وإجبارية التعليم الفرنسي على الجزائريين ، وفي هذا المجال راحت الفرنسية ريجيس تعد أسباب عزوف الجزائريين عن المدارس الفرنسية واعتبرت أن السياسة الفرنسية هي السبب في ذلك بعدم فتح مناصب عليا للجزائري بعد التخرج واقتصار الأمر على أربع مراتب وظيفيو فقط وهي : قاضي، شيخ قبيلة ، صبايحي ، أو قايد ، هذا الأخير مهمته حماية أراضي الكولون والقاضي وجب عليه أن يحكم بما يمليه عليه القانون الفرنسي الذي تلقاه في المدارس الشرعية الثلاث الإستشراقية ، والصبايحي مهمته توفير الأمن ، وشيخ القبيلة تنحصر مهامه في المهادن وبث روح الطاعة والولاء ، فكل من هذه المناصب في وظيفتها هي بالأساس تخدم بسط سلطة الإدارة الفرنسية لذلك عزف الجزائريون عن التعليم الفرنسي .

ومن الناحية الاقتصادية تحدثت لويس ريجيس عن مشاريع المعمرين وانتقدتهم بسبب عدم إكمالها وفشلها قبل وصولها الى مرحلة الإنتاج مصرحة في هذا الشأن بعد جدوى وصلاحية هذه المشاريع من أصلها وأعطت مثالا بمشروع الصحراء الداخلية (محمود، 2003) الذي أفصحت عن عيوبه وخطورته واستهدافه لإزالة البيوت العربية التي تعطي للمناطق الجزائرية طابعها الخاص ، كما أوصت الأوروبيين بعدم الإكثار من المشاريع أي التقليل منها والعمل على إنجاحها ، وقد شجعت على انشاء طرق السكك

عنوان المقال: المجتمع الجزائري في كتابات الرحالة الفرنسيين بين التشويه وواجب التصحيح خلال القرنين (18 و19م)

EISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

الحديدية لتحقيق الأغراض الاقتصادية حسبها هي من حيث السياحة وسهولة التنقل ، لكن في الواقع بغية ربط مناطق البلاد وسهولة تجميع الخبرات وتوجيهها نحو الموانئ ومنها الى فرنسا . وهنا تطرح تساؤلات عديدة حول الرحالة الفرنسية لويس ريجيس كونها مع السكان الجزائريين والتعاطف معهم أم مع حركة الاستيطان والتشجيع عليها وتوضيح سبل وطرق نجاحها خاصة وأنها قد أفصحت بأن سياسة التعمير في الجزائر تحتاج الى وقت طويل وإستراتيجية سليمة وأنه من المخاطرة بأن تستعجل فرنسا إيجاد سلطة قوية لها بالجزائر بسرعة دون مراعاة الصبر وطول المدة الزمنية (سعد الله، 1983) وهنا تظهر ريجيس وكأنها المرشدة للسياسة الفرنسية في المستعمرة الجزائرية ، ومهما كان من أمر صورة الإسلام والمسلمين في رحلة لويسي ريجيس فإنها ارحم بكثير مما وصفهم غيرهم في رحلاتهم مثل رحلة وارني.

الطرق والأدوات :

إعتمدنا في المقال طريقة تحليل المادة العلمية الواردة في كتابات الرحالة الفرنسيين وذلك باتباع كل خطوة تم الحديث عنها في هذه الرحلات، مع محاولة إخضاعها لما كتب في المصادر والمراجع الأخرى وذلك بالتركيز على المصادر والمراجع الجزائرية ثم المصادر والمراجع الأجنبية تركيزا على الفرنسية منها ، وكان من الأدوات الرئيسية التي اعتمدناها هو المنهج التحليلي المقارن في غالب مراحل المقال.

نتائج الدراسة:

يمكننا الوصول الى الإستنتاجات التالية سواء كانت تدخل ضمن أوجه الشبه أو الاختلاف بين الرحلتين

وهي :

- كلتا الرحلتين فرنسيتين وجاءتا في وقت تكاد تقضي فيها فرنسا على المقومات الشعبية .
- تمثل كلاهما وجهة نظر الفرنسي لصورة الإسلام والمسلمين سواء بالتصريح أو التلميح.
- رحلة وارني كانت فيها صورة الإسلام والمسلمين أكثر سوادا وأكثر شؤما.
- رحلة لويسي ريجيس مدافعة عن الإسلام والمسلمين حتى ولو كان ذلك يخفي وراءه أغراضا أخرى .
- تمثل الرحلتين مصدرا هاما من مصادر التاريخ الذي كتب عن الجزائر بغض النظر عن كونه تاريخا مغرضاً .
- توجيه الخطاب في الرحلتين الى مسؤولي الإدارة الفرنسية بالجزائر وهذا ما يعطيها صفة الطابع الرسمي وأنها رحلات كانت تحت الحماية والرقابة .
- لعب وارني في رحلته على وتر العصبية القبلية بين السكان الجزائريين .
- شملت الرحلتين الحديث عن جميع القطاعات الجزائرية وكأنها كان في مهمة وصف وتحضير للمعلومة.
- تطرقت الرحلتين الى كبرى القضايا التي تهتم الإدارة الإستعمارية بالجزائر وهي سياسة التفرقة ، حماية الكولون ، سياسة الإدماج وسبل تحقيقها ، نشر التعليم الفرنسي .

خاتمة:

بالتركيز على هاتين الرحلتين المهمتين من الكتابة التاريخية في إطار أدب الرحلة ، والمتناقضتين من حيث المحتوى وهما رحلة وارني التي تحمل عنوان " الجزائر أمام الإمبراطور " والتي حاول صاحبها إعطاء صورة سوداء ومظلمة عن المسلمين في الجزائر ، ولعب فيها على وتر العصبية القبلية بأن حاول فيها عبثا التفرقة بين العناصر المكونة للمجتمع الجزائري هادفا بذلك الى خدمة أسياده من دعاة الحركة الإستعمارية الهادفين الى توسيع رقعة الإمبراطورية جغرافيا ، متغافلا تحسين أوضاع الإمبراطورية الداخلية المتهاكلة والمقبلة على الإفلاس ، وقد كان في رحلته هذه غير منصف ولا عادل ولا حتى صادق فيا ذهب إليه وهي كتابات لا تخرج عن الإطار العام لكتابات المستشرقين الفرنسيين التي تصب في خانة الاستعمار ، وبالمقابل في رحلة " قسنطينة رحلات واقامات " لصاحبها لويس ريجيس ، وهي الرحلة التي ناقضت كل ما جاء في الرحلة الأولى ، وهي الرحلة التي حاولت إبداء تعاطفا مع السكان ووصف حالهم وأحوالهم ، وفي الوقت نفسه كانت منتقدة لسياسة الكولون وكل ما ينجر عنها .

عنوان المقال: المجتمع الجزائري في كتابات الرحالة الفرنسيين بين التشويه وواجب التصحيح خلال القرنين (18 و19م)

ISSN : 2661-7080 _ ISSN2773-2630

ومما سبق ذكره يمكننا الإجابة عن الإشكالية المطروحة وهي أن صورة الإسلام والمسلمين في رحلة وارني هي صورة مظلمة وحاقدة ومشوهة لكل ما هو إسلامي بالجزائر أراد من خلالها ترك انطباعا سيئا لدى التلقي ولذلك يمكن اعتبارها الى جانب نظيراتها من الرحلات في التوجه هي من أسس للكرهية بين الشعوب في العالم وهي من ساهمت في تصوير المسلم بكونه ذلك الدموي المحب للحروب والمتسلط والمتشدد لرأيه، بينما هذه الدرجة من العدا كانت غير واضحة في رحلة لويس ريجيس ولم تصرح بما يريده الساسة الفرنسيون منها وان كنا نلمس تلك الأغراض للرحلة من خلال ما بين سطورها ولم نقله صاحبيتها علانية .

وفي الأخير نوجه دعوة الى المزيد من الرد على ما جاء في هذه الرحلات الأوربية وخاصة الفرنسية نحو الجزائر وما إقامة التظاهرات الثقافية وعقد الملتقيات ، وطرح بعض الرحلات كدراسات أكاديمية وغيرها إلا خير فال لهذه الردود ودراسة محتوى الرحلات لمعرفة كيفية الرد على ما جاء فيها.

الإحالات والمراجع:

- 1- أبو القاسم سعد الله : ، تجارب في الأدب والرحلة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983، ص135.
- 2- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، ج6، دار البصائر ، الجزائر، 2007، ص 245.
- 3- ادوار سعيد: الإستشراق ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت، 1981.
- 4- حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب ، دار الأندلس، بيروت ، لبنان، 1983، ص06.
- 5- حسين محمد فهم: أدب الرحلات ، عالم المعرفة ، الكويت، 1989، ص151.
- 6- رنا قباني: أساطير أوروبا عن الشرق ، دار طلاس للدراسات والترجمة ، دمشق، 1993، ص183 .
- 7- عمار السخري : البدو بعيون غربية ، المركز الثقافي العربي ، ط1، الدار البيضاء، 2008 ، ص8..
- 8- عمر بن قينة: رحلات ورحالون في النثر العربي الجزائري الحديث ، ط2 ، دار الأمة ، الجزائر، 2009، ص287.
- 9- غزالي عبد العالي: صورة الجزائر في مصادر الرحلة الغربية خلال العهد العثماني ، مجلة الحوار المتوسطي ، مج09، العدد 01، 2018، ص15.
- 10- مي عبد الكريم محمود: تائهون في صحراء الإسلام ، صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة والمستشرقين الفرنسيين ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 ، سورية، 2003، ص134.

1-Warnier A : l,Algerie devant L'empereur ,paris , 1865p35..

2-Bourde paul : A travers l,Algerie , paris , 1880p229.

3-Regis louis : voyages et Séjours , paris , 1880p247.